عام

النظر الكفائي المقاصدي

ودوره في تعزيز قيم الحوار الثقافي والحضاري

عمر بيشو
باحث مغربي

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

مقدمة:

تندرج هذه المداخلة في إطار تقوية الحوار بين الثقافات والحضارات، وذلك من خلال مدخلي التربية والقيم، في علاقتهما بالتنمية البشرية، ودور القيم الإسلامية في بلورة هذه العلاقة، من خلال تفعيل أسس النظر الكفائي المقاصدي تحديدا، باعتباره نظرا يروم إصلاح المعرفة (الجمع بين آليات إنتاج المعرفة وآليات ضوابطها).

وعليه، تهدف هذه المداخلة إلى فتح نقاش حول عناصر أساسية في موضوع قيم الحوار الثقافي والحضاري، محاولة تسليط الضوء عليها، حيث نراها ذات أهمية، وذلك لجدة طرحها الإشكالي؛ والمتمثل في مشكلة مفهومها وتصنيفها ضمن سلم قيم خاص بها، تصبح بذلك أداة لتحليل المحتوى بشكل عام، وخاصة المضامين القيمية بالكتب المدرسية المقررة، ومنه ذلك المتعلق بالنظام التربوي المغربي، باعتبار ما تناوله راهن المنهاج الدراسي المغربي من تجديد بيداغوجي قائم على مدخلي الكفايات والقيم؛ وما يطرحه جديد القيم به، من ضرورة تأويلية لصرحه القيمي، والقائم على إمكانية تناظم القيم الإسلامية والقيم الكونية الحداثية من جهة؛ وما تطرحه من جهة أخرى، علاقة هذين المدخلين من إشكال على وجه التحديد... طارحا بالتالي، عدة أسئلة منها: هل يستجيب المنهاج التربوي للحاجة المتزايدة لتوضيح كيف يمكن لحوار الثقافات والحضارات أن يسهم في إبراز قيمة التنوع مع المحافظة على التماسك الاجتماعي؟ بمعنى، إلى أي حد استطاع المنهاج التربوي[1] أن يطور استراتيجيات لتدبير التنوع الثقافي والنهوض به، ضامنا في الوقت نفسه، انسجام مجتمعنا، مشجعا حوار الثقافات والحضارات، بما في ذلك بعده الديني؟ ... وهل يستطيع النظر الكفائي المقاصدي أن يسهم بدوره، في بلورة دور للقيم الإسلامية في تعزيز الحوار بين الحضارات والثقافات؟.

[1]- من المعلوم أن حوار الثقافات والحضارات في المناهج التربوية، يندرج في عملية التفاعل على المدى البعيد، وذلك عندما لا تكون قيم المتحاورين على صعيد واحد من التشابه والتجانس، حيث يمكن أن ينتج عن هذه العملية تفاهم حول أهمية قيم حقوق الإنسان والديمقراطية وسيادة القانون وتطبيقها على أرض الواقع،، كقيم مشتركة.

1– في الأسس المعرفية والنظرية لقيم الحوار الثقافي والحضاري:

لقد كثر الحديث عن حوار الحضارات والثقافات، وهو مع ذلك لا يزال يتمتع براهنية ما، فرضه بقوة زمن العولمة، الذي صبغ كل المجالات أو يكاد، بصبغته العولمية، بدءا من الاقتصاد إلى التربية مرورا بالثقافة والقيم؛ وبالتالي، أصبح موضوع التربية على الحوار الحضاري والثقافي في آن واحد، موضوع بحث راهن ومجال اهتمام عالمي، وأولوية بالنسبة للسياسات التربوية (ينظر على سبيل المثال: "الكتاب الأبيض الأوربي في الحوار بين الثقافات"، الذي تأسس في أكتوبر 2007)؛ خاصة مع بروز إمكانية الحديث عن "عولمة الثقافة"، والتي تقتضي - حسب الباحثة سيزار بيرزيا، باعتبارها وجها جديدا للعولمة، بدل بعدها الاقتصادي، ما يلي:

- نقطة التقاء لغوي وثقافي وعقائدي؛

- "عالمية" الخصوصيات؛

- تفكير عالمي، وعمل محلي؛

- قرية عالمية...[2].

حيث من خصائص هذه العولمة الثقافية، تضيف بيرزيا، نجد الميل إلى التقاء القيم، وهو ما أثبته بعض المحللين في "أن فترة الانتقال إلى ما بعد الشيوعية وظروف ما بعد الحداثة، تتجه إلى نظام من القيم المشتركة"[3]، ويستخلص (Inglhart)" من دراسة دولية أجريت في أربعة وثلاثين بلد ما يلي:

- من جهة، تتغلب القيم الفردية (الحرية، التعبير الشخصي، الملكية) على القيم الجماعية (الانتساب، الشعور بالانتماء، النظام الاجتماعي)؛

- من جهة أخرى، ثمة نزعة إلى استبدال القيم المادية (المال، العمل الإنتاجي، التساوي الاجتماعي، السلطة، عولمة الرعاية الاجتماعية) بقيم "ما بعد المادية" (الترفيه، الأنشطة الاجتماعية، التطوعية، التسامح، المعاملة بالمثل، ما بين الثقافات)[4]. بهذا المعنى، تتجه العولمة الثقافية إلى "العولمة المتبادلة" التي هي "نقيض

[2]- سيزار بيرزيا، **المواطنة الديمقراطية، تربية متواصلة مدى الحياة**، تقرير مجلس التعاون الثقافي الأوربي، ستراسبورغ، يوليوز 2000، ص 10
[3]- نفس المرجع، ص 11
[4]- نفسه، ص 12

العولمة التي تسوي بين الثقافات"[5]، حيث من منظور اجتماعي وثقافي، تقوم العولمة على إدخال ممارسات وهويات جديدة بفضل التفاعل والإغناء المتبادل بين الممارسات والهويات الموجودة.[6]

الحال إذن، أن هناك تسميات كثيرة لمدلول واحد، وهو الوقوف على أرضية مشتركة، قوامها المشترك الكوني البشري، أو الدعوة إلى "الكلمة السواء" بالتعبير الحضاري القرآني، والمتضمن في كل نصوصه الكونية، حيث تتحرك في إطارها مجموعة من القواعد والمبادئ والقيم المشتركة بين الثقافات والحضارات، توجه السلوك البشري بعيدا عن وحشيته وتضاديته المفرطة. وعليه، فحوار الثقافات يستدعي إذن، تبني منهجا تأمليا " يمكّن كل واحد من رؤية نفسه انطلاقا من وجهة نظر الآخرين، من هنا لا بد من وضع قيم تحترم الفرد كإنسان، وتعتبر بأن الإنسانية محكومة بمعايير أخلاقية موحدة وبالاعتراف المتبادل، حيث وضع القيمة المتساوية معترف به من لدن الجميع"[7]. وهذا ما ترمي إليه، مثلا، الرسالة الرئيسة التي يحملها الكتاب الأبيض الأوربي لحوار الثقافات، وهي أن هذا الأخير "أمر مستحيل بدون الرجوع إلى القيم الإنسانية المشتركة، كالديمقراطية وحقوق الإنسان وسيادة القانون".[8]

هكذا إذن، يتحدد استعمال لفظ "الحوار الحضاري والثقافي" المتداول في هذه الدراسة بالمعنى الذي يعبر عنه مدلول لفظ "عولمة الثقافة"، أو "العولمة المتبادلة" كما تمت الإشارة إليه أعلاه؛ وعليه، يمكن القول إن مسألة الحوار الحضاري والثقافي، هي مسألة التفاعل الإنساني والثقافي بين أتباع الحضارات والثقافات المختلفة، وإن مسألة قيم هذا الحوار، هي مسالة التقائها، أساسه "العولمة الثقافية" أو العولمة المتبادلة"، تلك العولمة التي لا تسوي بين الثقافات، وإنما تجمع بينها على المشترك الإنساني الكوني؛ ثم من "منطلق المبادئ الأساسية للحوار"[9]، حيث مبدأ "فحص أوجه الشبه والاختلاف" يمكن الحديث أيضا، عن قيم حوارية حضارية وثقافية مشتركة، تهدف إلى تغيير النظرة الاستعدائية والتخلي عن التصنيف النمطي المتوارث من مخلفات الماضي، والمشاركة في التأسيس لرؤية مستقبلية لمشروع الوحدة الإنسانية المرتقبة؛ تلك الوحدة التي أكد المفكر الحضاري روجي غارودي على أنها "لن تنشأ بالعنف أو بالقوة العسكرية، ولكن بوسائل السلام

---

[5]- نفسه، ص 12

[6]- نفسه، ص 12

[7]- ينظر تقديم **الكتاب الأبيض حول حوار الثقافات "من أجل العيش معاً متساوين في الكرامة"**، السيد تيري ديفيس الأمين العام لمجلس أوروبا، موقع: http://www.isesco.org.ma/arabe/publications/White%20Book/Menu.php

[8]- نفس المرجع، (بطبيعة الحال تبقى هذه الرؤية مرتبطة بسياق تداولها).

[9]- محمد أبو نمر، **"معجزات التغير عبر حوار الأديان"**، ضمن كتاب: **حوار الأديان وبناء السلام**، تحرير دافيد ر. سموك، ترجمة نادية خيري،الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة، الطبعة الأولى 2011، ص 20

والاقتصاد والثقافة والإيمان"[10]. فما قيم الحوار الحضاري والثقافي؟ وما خصائصها؟ وما تصنيفها ضمن سلم قياس القيم؟

2- الحوار الحضاري والثقافي وقيمه:

أ- قيم الحوار الحضاري والثقافي كأجرأة عملية للقيم الإنسانية المشتركة:

نتحدث عن القيم الحوارية الحضارية والثقافية، من زاوية التفاعل بين الأنا/ والآخر، بوصفهما مخالفين حضاريين وثقافيين أساسيا؛ حيث الشعوب تتطلع إلى التعارف والتفاعل فيما بينها بمحض إرادتها، وليس من باب الثقافة العليا، التي تتحكم فيها إرادة الهيمنة والمصالح الأحادية الجانب[11]؛ وبالتالي، فقيم الحوار الحضاري والثقافي، هي قيم حاثة على الحوار، جالبة له، نابذة للصراع، دارئة له؛ جالبة لفكرة الاختلاف والتعدد، دارئة لفكرة التسلط والاستبداد الحضاري، بتعبير المنجرة[12]؛ هدفها إرادة تحقيق التحالف بين الحضارات، والاختلاف التنوعي لا التضادي بين الثقافات؛ أي أنها قيم موجهة، حيث لن يستقيم حوار الحضارات والثقافات، إلا عندما يكون هذا الحوار نفسه موجها؛ وكلمة التوجيه على حد تعبير "ليفيناس" أنه إذا كان هذا العالم متحررا من الغرب، ومن الاستعمار، فإنه أيضا عالم تائه، لكونه أصبح مسرحا لـ"هرج ثقافات عدة لا ترى كل واحدة منها نفسها، إلا في سياقها الخاص"، والحال أن القيم الإنسانية المشتركة، ومنها الحقوق الإنسانية، هي ما يحول دون أن تكون الثقافات جزرا منغلقة على نفسها".[13]

أما على مستوى تفاعل مضامين هذه القيم، فيمكن القول إن هناك مستويين من هذا التفاعل الحواري:

أ- تفاعل **حواري مباشر** يشمل بالتالي، مضامين قيمية حوارية مباشرة، كقيمة التواصل، التضامن، التعارف... إذ لا يمكن تصور حقيقة لهذه القيم دون وصلها بمستواها الفعلي/ العملي المباشر، وهو ما تعكسه دلالاتها الصرفية في الحقل البياني العربي لكلمة " تفاعل" التي تقتضي الاشتراك في الفعل؛ ويندرج تحت هذا التفاعل الحواري النمطي كل من القيم الاجتماعية(التعارف، التواصل، التضامن...)[14] والقيم السياسية

---

[10]- روجي جارودي، **فوضى النظام العالمي الجديد**، مجلة الفرقان عدد 41 / 1998، ص ص 9-17 (محاضرة ألقيت ضمن الملتقى السنوي الثامن عشر لرابطة التعاون الإسلامي، واتحاد الطلبة المسلمين ببلجيكا).

[11]- علال بن العازمية، **أطروحات الصراع والتثاقف في زمن العولمة، صراع الحضارات والثقافات والقيم**، منشورات عالم التربية، الطبعة الأولى 2011، ص 42

[12]- المهدي المنجرة، **الحرب الحضارية الأولى**، الناشر،عيون بالدار البيضاء، والشهاب بالجزائر، الطبعة الثالثة 1994
أو القيم الإسلامية في بلورة هذا الأخير؟.

[13]- سليمان بشير ديان، **"تقارب الثقافات في مجال حقوق الإنسان"** ص/18، ضمن كتاب/ **صراع الحضارات أم حوارها، إشكالية البديل؟** سلسلة حوار الضفتين، الدار البيضاء 2009

[14]- نشير هنا إلى أن كلمة **"تحالف"** تندرج هي الأخرى، ضمن هذا النسق البياني العربي، والذي يجعلها ضمن القيم الحوارية ذات البعد الدلالي المباشر، بدل اعتبارها لوحدها غاية الحوار، مما يزيد في غموض المفاهيم في هذا الحقل المعرفي للحوار.

(الديمقراطية، المواطنة، السلوك المدني،...) والقيم الدينية(العقيدة الإيمانية الموحدة، الأخلاق...)، والقيم الاقتصادية (التنمية المستدامة،...).

ب- **تفاعل حواري غير مباشر**، يمكن القول إنه يشمل مضامين قيمية حوارية، لكنها لا تطال الآخر بشكل مباشر؛ أي أنها تحمل في طياتها، إرادة للتفاعل الحواري الحضاري والثقافي؛ ويندرج تحت هذا الإطار الحواري التفاعلي، كل من القيم المعرفية والفكرية/ النظرية (الاهتمام بالمعرفة والعلم، تقدير العلماء،...) والقيم الجمالية/ الفنية (الاهتمام بالطبيعة، الاهتمام بالألوان والأشكال والإبداع، ...)؛ بمعنى أن هذه القيم الأخيرة، تعتبر قيما حاملة للبعد الحواري الثقافي والحضاري، خادمة لقيم محورية ومركزية في الحوار الحضاري والثقافي.

ب- في مفهوم قيم الحوار الحضاري والثقافي:

*- مفهوم القيم:

القيم مادة تتعلق، في حقلها الدلالي اللغوي، بعدة معان، تدور في غالبيتها حول: قيمة الشيء وقدره أو مقداره، والتقويم والاعتدال، والاستقامة وعدم الميل، والثبات والتحكم في الأمور؛ والقيم بهذا الاعتبار، مفهوم جامع لكثير من المعاني والدلالات، التي تسوغ إطلاقه على كل ما من شأنه أن يمثل معيارا وميزانا يتحرك من خلاله الإنسان، ويتصرف، وعيا وسعيا، بوحي من إشاراته وتوجيهاته، حيث تكون هذه الحركة في استقامة وثبات، وبه يكون لهذه الحركة قدرها وفاعليتها.[15] وتعرف القيم في الاصطلاح التربوي بأنها: "مفهوم يدل على مجموعة من المعايير والأحكام تتكون لدى الفرد من خلال تفاعله مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية، حيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجيهات لحياته يراها جديرة لتوظيف إمكانياته، وتتجسد خلال الاهتمامات أو الاتجاهات أو السلوك العملي أو اللفظي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة".[16]

أما القيم في ارتباطها بحوار الحضارات والثقافات، فهي" تفيد احترام الغير وتقدير الآخر، في إطار إنصات وإصغاء وتبادل الآراء؛ وليس في ظل هيمنة قيم على أخرى، بدعوى التبعية للأقوى؛ لأن هذا النمط من السلوك يتنافى ومبادئ حقوق الإنسان"[17]؛ فالقيم، يضيف المنجرة، "لها قيمة حتى يوم القيامة، شريطة أن نعيشها بأنفسنا، وليس من طرف الغير؛ وهنا لا ينبغي الخلط بين التثاقف، بمعنى الأخذ والعطاء الثقافي والمعرفي والعلم،...، وبين سلب قيم الآخر للهيمنة عليه".[18]

---

[15]- محمد عبد الفتاح الخطيب: **القيم الحضارية في الإسلام، نحو حداثة إنسانية جديدة**، دار البصائر، ط1، 2011، ص 48

[16]- علي خليل مصطفى أبو العينين: **القيم الإسلامية والتربية**، مكتبة إبراهيم حلبي، المدينة المنورة، 1988، ص 24

[17]- عبد الكريم غريب، **"حوار مع المهدي المنجرة"**، مجلة عالم التربية، العدد 17، ص 26،(محور العدد: حوار الحضارات والثقافات).

[18]- حوار مع المهدي المنجرة، نفس المرجع، ص 26

***- مفهوم الحوار:**

الحوار في جوهره هو التبادل السلمي للأفكار والآراء والمعلومات، ومن حيث الشكل يتم هذا التبادل من خلال التفاعل الكلامي و/ أو التفاعل غير الكلامي، كما يعد الحوار أداة قوية تعمل على تعميق فهم توجيهات الآخرين، ووجهات نظرهم العالمية.[19]

***- مفهوم الثقافة/ الثقافات:**

تعتبر الثقافة من أوسع وأعقد المفاهيم المستخدمة في العلوم الاجتماعية التاريخية، لكونها تتضمن مجموعة من الدلالات، بحسب المجال أو المجتمع الذي تنتمي إليه أو تصب فيه؛ فليس ثمة تعريف "جامع مانع" لكلمة "ثقافة"[20]. وعلى أية حال، لو نظرنا إلى مختلف تعريفات مفهوم الثقافة التي أوردها معظم علماء الاجتماع، لوجدنا أنها لا تخرج في خلاصتها عن القول بأن الثقافة هي "تلك المعايير المشكلة لنظام العقل والسلوك".[21] وبالتالي، ففي علاقتها بمفهوم قيم الحوار الحضاري والثقافي، فيمكن القول إن الثقافة تستمد مفهومها من خلال مرجعياتها الأساسية والمتمثلة في:

- **المرجعية الأولى**: المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي انعقد في مكسيكو شهر غشت 1982، حيث تضمن إعلانه الختامي تدقيقا مفاهيميا للثقافة على أنها: "جماع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الإنسانية للإنسان، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات (...)، وبالتالي فإن الثقافة تتمظهر في وحدة المظاهر الحيوية لشعب ما"؛ وقد تنبه هذا المؤتمر إلى مجموعة من القضايا الرئيسة التي لا بد لكل سياسة ثقافية من الاعتناء بها، نذكر على الخصوص: ضرورة الحفاظ على تنوع الثقافات، وفسح المجال للمجتمع المدني كي يسهم إسهاما فعالا في صياغة وتنفيذ السياسات، ووجوب تعزيز التعاون الثقافي الدولي، لأن من شأن العولمة التي ستطبع القرن الحادي والعشرين أن تفضي إلى إقامة روابط بين الثقافات أوثق مما كانت عليه في أي وقت مضى، وإلى إثراء التفاعل بينها، ولو أنها قد تلحق الضرر بالتنوع الإبداعي وبتعدد الثقافات".[22]

---

[19]- محمد أبو نمر، **"معجزات التغير عبر حوار الأديان"**، مرجع مذكور، ص 27

[20]- أورد الكاتب علي آل موسى في كتابه بعنوان: **"ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين- الاتصال والتقاطع أو الانفصال والقطيعة"**، أكثر من اثنين وعشرين تعريفا للثقافة، ولكنه يشير إلى أن هذا المصطلح- عبر مساره التاريخي- تجاوز المعاني اللغوية التقليدية عند القدماء، حيث عدت دلالته الراهنة شمولية واكتسب سعة في المعنى. واختلف علماء التربية والاجتماع وغيرهم في تعريف (الثقافة) تبعا لاختلاف تخصصاتهم ووجهات نظرهم؛ ولمزيد من الاطلاع على تعريف الثقافة وتحديد مفهومها، ينظر:

- **"بناء المفاهيم، دراسة معرفية ونماذج تطبيقية"** إعداد مجموعة من الباحثين، الجزء 1 دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، 2008، ص ص 260-301

[21]- أحمد المخزنجي، الحضارة الإسلامية وسطيتها وموقفها من الآخر، سلسلة دعوة الحق، عدد224، 2008، ص 40

[22]- محمد مصطفى القباج، **التربية والثقافة في زمن العولمة**، المعرفة للجميع، 24، ص 158، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002

- **المرجعية الثانية** الأساسية: هي تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية الذي أشرف على إنجازه (خافير بيريز دي كويلار) وصدر تحت عنوان "التنوع الإنساني المبدع"، حيث دعا هذا التقرير وبإلحاح، إزاء ما يعرفه العالم من تحولات حضارية كبرى، وما يواجهه من مشاكل وأزمات تشكل خطورة على الإنسان، إلى إعادة التفكير في عملية التنمية نفسها من حيث مفهومها ومضمونها وأنساقها وإجرائياتها من أجل صياغة تصور تكاملي يغطي كل مناحي الحياة؛ أي في اعتبار ما أتى به التقرير يفتح آفاقا جديدة، ويقدم حججا ترمي إلى توسيع مفهوم التنمية ذاته، وإلى تمكين الشعوب من العيش اللائق والكريم والمعقول في آن معا، دون أن تتخلى عن ذاتيتها وعن انتمائها. وقد وصف جاك دولور التقرير بأنه يرسم عبر صفحاته الخطوط العامة لنموذج تجديدي لتنمية تعددية قائمة على تنوع الثقافات، تنوع لا يمثل ذريعة لاستبعاد الآخر، بل بوثقة لأشكال جديدة من التضامن والتبادل والعيش المشترك".[23]

****- مفهوم حوار الثقافات:**

يقصد بحوار الثقافات في الكتاب الأبيض الأوربي، عملية تبادل وجهات النظر بشكل متفتح ومحترم ما بين أشخاص ومجموعات ذات أصول وتقاليد إثنية وثقافية ودينية ولغوية مختلفة، في إطار روح التفاهم والاحترام المتبادلين. ومن بين العناصر الأساسية في هذه العملية، هناك الحرية والقدرة على التعبير فضلاً عن الإرادة وملكة الإنصات إلى الآخرين. ويسهم حوار الثقافات في الاندماج السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وفي الانسجام ما بين مجتمعات مختلفة ثقافياً، كما يشجع الارتقاء بالمساواة والكرامة الإنسانية وإرساء الشعور بالأهداف المشتركة. ويسعى حوار الثقافات إلى التعريف بشكل أفضل بمختلف الممارسات والتصورات، وكذلك إلى تقوية التعاون والمشاركة (أو حرية الاختيار) وتوفير الفرصة للأشخاص للتطور والتحول بالإضافة إلى تشجيع التسامح واحترام الآخر؛[24] فحوار الثقافات، بمعنى آخر، هو "حوار بين الشعوب المختلفة ذات الحضارات المتنوعة، ويحاول طارحو هذه الفكرة التقريب بين الشعوب التي مزقتها السياسات المتعارضة المبنية على المصالح المادية في أغلب الأحوال"[25]؛ أي أنه (حوار الثقافات) مقاربة لحل مشكل النزاعات بين شعوب حاملة لثقافات مختلفة، لكنه ليس دعوة لتخلي أي طرف عن خصوصياته الثقافية إرضاء للآخر أو تفضلا أو تنازلا، بل هو اعتراف متبادل بهذه الخصوصية الثقافية، هذه الخصوصية التي لا تخلو من بذرة كونية تهم كل البشرية كالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان التي يجب أن يؤمن بها كل طرف محاور.[26]

***- مفهوم الحضارة/ الحضارات:**

---

[23]- نفس المرجع، ص ص 162-164

[24]- ينظر تقديم **الكتاب الأبيض حول حوار الثقافات "من أجل العيش معاً متساوين في الكرامة"**، السيد تيري ديفيس الأمين العام لمجلس أوروبا، موقع: http://www.isesco.org.ma/arabe/publications/White%20Book/Menu.php

[25]- زهور حوتي، **دور التعليم في تعزيز حوار الثقافات في زمن العولمة**، عن موقع: مؤسسة الفكر العربي http://www.arabthought.org/orm

[26]- زهور حوتي، نفس المرجع.

يعتبر مفهوم الحضارة من أكثر المفاهيم صعوبة في التحديد، وذلك بفعل التطور الدلالي الذي حظي به عبر تاريخ الحضارة نفسها، ولعل من أهم أسباب الاختلاف في تعريفها أيضا ما يرجع إلى الخلفية الفكرية لصاحب كل تعريف، والمنظور الذي يقدم من خلاله تعريفه، وكذلك تكوينه العلمي وزاده المعرفي؛ فالمؤرخ، والأنثربولوجي، وعالم الاجتماع، واللغوي، وعالم النفس، كل يعرفها انطلاقا من أرضيته الفلسفية ومنظوره المعرفي الذي ينظم أفكاره. ونتيجة لحيوية التنقيب والبحث في حقل الدراسات الحضارية، ظهرت تعريفات متعددة ومتنوعة لظاهرة الحضارة. كما أن هناك تعريفات ولدت ضمن إطار الوعي العقدي الغربي وأخرى صيغت استجابة للوعي العقدي التوحيدي.[27]

والحضارة بهذا الاعتبار- أي: اشتقاقها من مطلق الحضور- تطلق، ويراد بها: كل حضور في الواقع، رام تحريك الحياة بكل أبعادها وامتدادها، وعيا وسعيا، من خلال تحيزاته وأنساقه المعرفية (مصطلحاته ومفاهيمه النابعة من رؤيته للإنسان وعلاقته بالكون وعالم الأشياء من حوله) ثم سعى إلى تقديم هذا الحضور، بأنساقه وتحيزاته، على أنه نموذج قياسي للبشرية كلها، وبهذا يصبح لمفهوم الحضارة معنى حياديا[28]؛ إذ يطلق كل حضور في الحياة كانت هذه صفاته؛ ومن ثم يصبح لكل حضارة تعريفها الخاص بها، بناء على نموذجها المعرفي الكامن فيها، وقيمها التي أبدعتها، ومذاقها الخاص الذي يميزها[29]. ووفقا لهذا الأصل، نستطيع أن نعرف الحضارة الإسلامية، بأنها: "كل حضور يسعى إلى تحريك الحياة وفق رؤية الإسلام للإنسان والكون والحياة، ومقاصده في تحريك الحياة، ومن خلال نموذجه المعرفي الخاص به، والقائم على: وصل الإنسان بربه، وكذلك وصل الإنسان بأخيه الإنسان، ثم الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون، انتفاعا واستثمارا وائتمانا.[30]

كما تعرف موسوعة ويكيبيديا الحضارة، بأنها عبارة عن إجراء تفاهم بين طوائف عدة تدين بأديان مختلفة ولها مقومات حضارية مختلفة؛ فالحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون.

يمكن القول، ومع صعوبة تجريد الحضارة من تحيزاتها المعرفية، حيث تم تعريفها بأشكال مختلفة؛ إن المقصود من مصطلح الحضارة، هو مدلولها الجمعي الواسع، حيث تخليص الكلمة من شحنتها القيمية، ومن الرواسب التاريخية الاستعمارية التي كانت لصيقة بها[31]؛ وبالتالي، ولغرض البحث، فإن مدلول الحضارة/

---

[27]- ينظر بدران بن الحسن، **"في مفهوم الحضارة"** في الموقع التالي: drbadrane.com/?p=109

[28]- محمد عبد الفتاح الخطيب، **القيم الحضارية في الإسلام، نحو حداثة إنسانية جديدة**، دار البصائر،ط1، 1432هـ/2011 م، ص 50

[29]

[30]- للتوسع، ينظر الموقع التالي:

http://www.civilizationstory.com/civilization

[31]- علال بلعازمية، مرجع مذكور، ص 23

الحضارات، يقصد به: "حصيلة جهود أمم متكاملة، تعكس سعي الإنسان الحثيث نحو سنة التدافع الحضاري، أو التقدم المجرد من الطمس الحضاري والثقافي، في شتى المجالات ونواحي النشاط بغية الاستغلال التنموي الأمثل، لخدمة رقي الحياة البشرية جمعاء".[32]

3- خصائص قيم الحوار الحضاري والثقافي:

يبدو أن هناك صعوبات حقيقية في إيجاد أرضية ومبادئ عامة لحوار ثقافي وحضاري، يقبلها الجميع ويقتنع بها، لأن لكلّ واحد، منظومته الثقافية والحضارية الخاصة، وهذه المنظومة لها مرجعيات محددة. لهذا، ولإقامة حوار بين الثقافات، يتطلب منا وقفة متأنية لقراءة ذاتنا (العربية الإسلامية) وكذا الذات الأخرى (الغرب)، لأن الغربي، والذي يدعو إلى مبادئ كونية، هو نفسه يعيش سجين خصوصياته الثقافية التي تقصي الآخر وتعجز على الانفتاح عليه، لأن لديه عقدة التفوق على الآخر، ولأنها ثقافة وحضارة مبنية أساساً على نفي الآخر، وإن كان لا يكلّ من رفع شعارات المساواة والإنصاف والعدل بين البشر. ومن منطلق هذا" التوجه الاستعلائي للثقافة الغربية عموماً، الصريح أحياناً، والمضمر في غالب الأحيان، تصر كبرى الدول الغربية المهيمنة في عالم اليوم، على مصادرة حقّ الآخرين في الاختلاف والاختيار، وعلى احتكار الحق في بلورة القيم الحضارية والكونية نفسها، وتنكر هذا الحق على الآخرين"،[33] ولعل ما يدل على ذلك اختيار الكتاب الأبيض الأوربي لحوار الثقافات مبادئ واضحة المرجعية، يمكن القول إن الأساس العلماني فيها بادٍ للعيان، حيث غياب دور الدين في تفعيل هذا الخطاب الحواري. من هنا يمكن فهم طبيعة مرتكزات الكتاب الأبيض المغربي وثوابته القيمية التي نص عليها، حيث الدين ممثلا في قيمه العقدية إلى جانب تلك القيم التي نص عليها الكتاب الأبيض الأوربي.

أ- خصائص الحضارة الإسلامية:

يتميز الدين الإسلامي في مجال القيم والأخلاق بمجموعة من الخصوصيات، يمكن إجمالها في ما يلي:

- كون القيم في المنظومة الإسلامية أكمل وأتم، لأنها نسق مفتوح؛ فهي قابلة للتكيف مع الزمان والمكان، وتخاطب الإنسان العالمي والكوني في الماضي والحاضر والمستقبل.

- لأنها ألصق بالإنسان وتخاطب فطرته قبل عقله، وتوضح له مبررات وجوده ومآله بعد مماته.

---

[32]- نستعمل هذا المعنى الحواري للحضارة كما تم تداوله في دراسة، زهير عبد الهادي المحميد، **"مشروع ثقافة حوار الحضارات وتعايشها في المواجهة مع الصهيونية"**؛ (موقع: www.incm.net)

[33]- زهور حوتي، مرجع مذكور.

- لأن نزول القرآن، باعتباره المرجع الأساسي للقيم الإسلامية أحدث انقلابا في النسق والبناء الاجتماعي للإنسان، حيث حافظ على قيم كانت عند العرب كالكرم والعفة والعزة... وألغى قيما أخرى كوأد البنات والرق والفوارق الطبقية...وأحيانا أخرى لم يلغ القيم، بل أعطاها أبعادا جديدة.

- أحيا قيما قديمة كانت سائدة لدى أمم سابقة كالعدل والمساواة والحرية.

- كون الإسلام يمثل قمة الالتزام بالأخلاق، وخير مثال على ذلك أخلاق الإسلام في الحرب، والمتمثلة في النهي عن: قطع الأشجار، و تدمير العمران وإحراق الزرع وقتل الأطفال والنساء والشيوخ ...وكل من لا يحمل السلاح في وجه المسلمين، والغدر والتمثيل...

- كون القرآن الكريم والسنة النبوية ثورة قيمية أخلاقية، تسعى إلى خلق إنسان جديد يدرك معنى الالتزام بالعقود والمواثيق، ومثل بدستور المدنية كأول وثيقة سياسية تؤسس لمرحلة جديدة وإنسان جديد.

- كون القيم الإسلامية قيم ضرورية وليست حاجية ولا تحسينية.[34]

ب- نحو تحديد لخصائص قيم الحوار الحضاري والثقافي:

- قيم متداولة بين الهويات الحضارية والثقافية الأساسية المختلفة ؛أي قيم ذات صبغة جماعية؛

- قيم ذات دلالة تشاركية على مستوى بنيتها الصرفية/" تفاعل"؛ ومنها قيم: التسامح، التضامن، التواصل،...؛

- قيم ذات لغة عالمية، يمكن لأي فرد أن يفهمها ويربطها بذاته؛

- قيم لها صفة العالمية، والكونية، حيث تسمو على الاختلافات الحضارية والثقافية التضادية، وتخدم المصالح العليا للإنسانية؛

- قيم تربوية ذات أبعاد تعلمية جديدة "تعلم لتشارك"، "تعلم العيش معا" ترتقي بالمتعلم من مستوى وجوده الإنساني، إلى مستوى الشهود والتحالف الحضاري؛

- قيم تخضع مجالاتها لتصنيف معياري تفاعلي قائم على المرونة والمحتوى؛

4– في أجرأة قيم الحوار الحضاري والثقافي:

[34]- سعيد شبار، **"منظومة القيم والأخلاق في المجتمعات المعاصرة"**، ينظر في الموقع التالي:www.maghress.com/azilal/6668

يمكن القول إن قيم الحوار الحضاري والثقافي هي قيم مشتركة "تتبناها الفطرة الإنسانية لجميع الشعوب على اختلاف ألوانها ومشاربها وتوجهاتها، لأن فيها حفاظا على دوام وحدة الأصل البشري، وحماية لوحدة المصير المشترك بين أبناء الأسرة الإنسانية"[35]؛ وذلك باعتبار أن "كل المجتمعات تبحث عن العدل والسلام في إطار ما يسمى بحوار الحياة، وهو يعني الحياة مع الآخر والاهتمام بقضاياه وتفهم خلفياته والاعتراف بتمايزاته واحترام قيمه ومبادئه".[36]

بمعنى آخر، قيم الحوار الحضاري والثقافي- حسب المنجرة- هي تلك "القيم الضرورية للتحاور السليم والصحيح مع الآخر (قيمة الكرامة، وقيمة الحرية، وقيمة التعددية، وقيمة احترام الآخر، وقيمة العدالة الاجتماعية..."[37]؛ حيث تلعب هذه القيم دورا استراتيجيا في الحفاظ على التنوع الحضاري والثقافي، بارتكازها أساسا على تقبل التنوع والاختلاف.

يمكن كذلك استجلاء هذا المعنى، من خلال تعريف الكتاب الأبيض الأوربي لحوار الثقافات[38]، حيث يرتكز على عنصرين أساسين، وهما:

أ- اعتبار حوار الثقافات عملية تبادلية بينية؛ ومعنى ذلك أنها تضع بعين الاعتبار عدم استعلاء وتميز أحد عناصر المتحاورين على الآخر؛

ب- اعتبار إطار من القيم تتحرك فيه هذه العملية المتبادلة؛ بمعنى لا يمكن تصور هذه الأخيرة في غياب نسق من القيم، أو "عناصر أساسية"، كما يسميها هذا الميثاق، كالحرية والقدرة على التعبير، والإرادة، وملكة الإنصات إلى الآخرين، في إطار روح التفاهم والاحترام المتبادلين، واللذين يشكلان بدورهما قيمتان أساسيتان لهاته العملية؛ بمعنى لا إمكانية لقيام حوار في غياب قيم مؤطرة له، ذلك الحوار الخالي من كل هيمنة، حوار تحكمه قوة الحجة وليس حجة القوة.

بعبارة أخرى، نتحدث عن قيم الحوار الحضاري والثقافي؛ بمعنى، تلك القيم، أو "المبادئ الجوهرية"-كما ينعتها الميثاق الأوربي- التي تؤطر عملية التبادل بين وجهات النظر المختلفة، بين الأشخاص ومجموعات ذات أصول إثنية وثقافية ودينية ولغوية مختلفة؛ والتي لا يمكن الحديث عن إمكانية حركية هذا التبادل وتفاعله في غيابها (القيم)، والمتمثلة أساسا في قيمتي التفاهم والاحترام المتبادلين.

35- مريم أيت أحمد، **جدلية الحوار، قراءة في الخطاب الإسلامي المعاصر**، منشورات علوم التربية، العدد 23، ص 78

36- نفس المرجع، ص 146

37- حوار مع المهدي المنجرة/ عالم التربية العدد 17، ص 27

38- **الكتاب الأبيض حول حوار الثقافات**، مرجع مذكور.

يمكن القول، إن قيم الحوار الحضاري والثقافي، باستحضار المنظومة القيمية الإسلامية، هي تلك المرتكزات التي تقوم عليها الحياة والعيش المشترك، كما حددها الوحي والعقل البشري الرشيد، في علاقة الإنسان بنفسه ومحيطه وخالقه؛ فهي قيم إنسانية موجهة بالفطرة البشرية، محركة للتدافع والتحاور والتعارف الحضاري؛ وهي بذلك تختلف عن تعريف القيم الإسلامية في تناولها المطلق، من حيث كون هذه الأخيرة موجهة بالتشريع الإسلامي، والذي يمنح بموجبه هوية الشخصية الإسلامية لها، كمكون من مكونات الاختلاف البشري.

وبالتالي، يمكن القول **إجرائيا تربويا**، إن قيم الحوار الحضاري والثقافي هي مجموعة من المبادئ والمعايير المنبثقة عن تقاطع المنظومات الحضارية والثقافية؛ وهي قيم كونية يؤمن بها المجتمع الإنساني العالمي، ويعتقد أفراده أنها تحقق لهم مكاسب مادية ومعنوية، كما أنها المحركة لسلوكهم واتجاهاتهم، وهي قابلة للاكتساب والتعلم؛ ومندرجة في مجالات محتوياتية كما هي متداولة في التصنيفات العالمية المعروفة: الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والديني، والنظري، والجمالي؛ كما سنرى، حيث صنفت ضمن هذه المجالات وفق معياري المرونة والمحتوى، كما تقتضيه طبيعة هذه القيم.

أ- في تصنيف قيم الحوار الحضاري والثقافي:

باعتماد ما سبق، يمكن القول إن قيم الحوار الحضاري والثقافي تخضع لصنفين من المعايير، هي كالتالي:

***- معيار المرونة في الحوار والتفاعل البناء:**

تعني المرونة في عملية الحوار الحضاري والثقافي، ألا تنحصر هذه القيم في نموذج واحد، أو هيكل محدد في التجلي النظري، والتطبيقي؛ فالمرونة أو القرب من الواقع، في عملية التفاعل تمثل أهمية بالغة للتفاعل البنّاء.

فلكي يكون هناك تفاعل بناء في أي حوار ما، لا بد وأن تكون قضاياه وعناصره قريبة من الواقع؛ فمثلا، الحوار الفلسطيني والإسرائيلي، هل يمكن أن يكون مجديا، إذا تمت أولويته على المستوى الفكري/ النظري، أو الفني/ الجمالي(التقاء مشاركين في الحوار من خلال طرح قضاياهم الفكرية الإيديولوجية) دون مستوى السياسة أو الاقتصاد، مثلا؟ الشيء يقال كذلك على مستوى المنهاج التربوي، بالنسبة للمتعلم المغربي، حيث يعيش أجواء نسبية من الأمن في الداخل بفضل نسبية تجانس وسطه الثقافي والحضاري (وحدة مذهبية: عقدية وفقهية وسياسية) وانعدام الأقليات في البلد، ليس كما هو الشأن في أوربا مثلا، أو في بلد منها على السواء...فالسؤال المطروح إذن، هو ما أهمية غرس قيم الحوار الحضاري والثقافي وإنمائها في شخصية

[39]- محمد أبو نمر، **"معجزات التغير عبر حوار الأديان"** مرجع مذكور، ص 21

المتعلم المغربي؟ بمعنى، وباعتبار معيار المرونة، ما طبيعة حوار الحضارات والثقافات وقيمه التي ينبغي إكسابها للمتعلم المغربي؟ أيهما أقرب إلى واقعه، وبالتالي، ينبغي تفعيلها تعلما واكتسابا؟ هل هو المستوى السياسي أم الاجتماعي أم الاقتصادي أم الديني...؟

إن ما سوغ لنا اختيار كل من المستوى السياسي والاجتماعي والديني والاقتصادي، بشكل أساس،

كمستويات للحوار قريبة من الواقع، هو:

أولا: تلك الإكراهات التي تمليها كل من العولمة الثقافية (إمكانية التقاء القيم) خدمة للوحدة الإنسانية؛

ثانيا: اقتضاء القيم الإسلامية ذاتها في ضرورة تفعيل الحوار والانفتاح على الشعوب الأخرى من خلال التعرف على حضاراتها وثقافاتها؛

ثالثا: مرتكزات الميثاق الوطني للتربية والتكوين في ضرورة اعتماد قيم العقيدة الإسلامية، وقيم الديمقراطية والمواطنة وحقوق الإنسان، وهي قيم لا تخرج عن المستويات المذكورة بشكل مباشر في المستويات الثلاثة الأولى، وبشكل غير مباشر في المستوى الاقتصادي، حيث لا يمكن فصل هذا الأخير عن الأهداف المباشرة للمستويات الثلاثة (السياسي والاجتماعي والديني)؛ أي تحقيق التنمية البشرية، تلك التنمية التي تستفيد منها جميع العناصر البشرية، وبالتالي جميع الثقافات، حيث "التنوع لا يسهم في إنعاش الحياة الثقافية فحسب، بل يسهم كذلك في تحسين القدرات الاجتماعية والاقتصادية".[40]

أما المستوى النظري/ الفكري، والفني/الجمالي، فمطلوبة كذلك، لكن ليست في درجة المستويات الثلاثة المذكورة، من حيث الأولوية في أطروحة المرونة الحوارية؛ بمعنى أنها نسبيا مطلوبة راهنا لغيرها لا لذاتها.

فالمستوى السياسي المتمثل في قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان، والمواطنة، وغير ذلك؛ لا أحد يخالف راهنيتها ومدى أهميتها التنموية للشعوب، وهو كذلك بالنسبة للمستوى الاجتماعي من خلال قيمه المشتركة (التضامن، التعاون، التواصل، التعارف...) كما هو الشأن كذلك، بالنسبة للمستوى الديني (المستوى العقدي والأخلاقي على وجه التحديد)؛ فقيمه مطلوبة على أساس قاعدتي الإيمان والأخلاق، في وجه طغيان عولمة التطرف والأصولية المنبعثة من الإفراط في التحصين الهوياتي والعرقي والثقافي، والتي أصبحت تعرفه شعوب العالم بفعل تداعيات العولمة، وفرض تنميط ثقافي مصاحب لها.

[40]- ينظر، "**الكتاب الأبيض الأوربي في الحوار بين الثقافات**"، الذي تأسس في أكتوبر 2007، وكذلك الإعلان النهائي للندوة الأوروبية حول "**البعد الديني للحوار بين الثقافات**"، سان مارين، 23 و24 أبريل 2007(متوفر على الموقع: **www.coe.int/dialogue**).

إن السؤال المطروح إذن، هو ما مدى حضور مستويات هذه المجالات الأربع (السياسي، والاجتماعي والديني والاقتصادي) كمحتويات قيمية ذات بعد حواري مباشر(المقصود، تخدم قيم الحوار الحضاري والثقافي بشكل مباشر) في راهن إصلاح مناهجنا التربوية؟

***- معيار محتوى القيمة:**

لقيم الحوار الحضاري والثقافي محتويات خاصة، تفرضها طبيعة موضوعها؛ لذلك، فالحديث عن القيمة الاقتصادية، مثلا، كمحتوى قيمي بارز في التصنيفات القيمية العالمية التي تناولت القيم من خلال معيار المحتوى، يكاد يضيق، إلى درجة انعدامه، باعتباره يمثل سببا مباشرا في وجود " الفجوة في مستوى الازدهار بين بلدان العالم ومناطقه، وسببا دائما لنشوب النزاعات والحروب. فإذا أراد الناس العيش بسلام؛ فعليهم تضييق هذه الفجوة أو سدها نهائيا. إن الفقر هو إنكار لحقوق الإنسان، وإهانة لكرامتنا الإنسانية الأصيلة، وللتنمية البشرية الإنسانية، وللروح الإنسانية. والفقر شر في حد ذاته، يحرمنا من الصحة، ومن فرص التقدم كأسرة إنسانية، ومن حرياتنا الأساسية، ومن احترام بعضنا للآخر. كما أنه يدمر احترامنا لأنفسنا باستهدافه روح إنسانيتنا بالذات".[41] وبالتالي، فالقيمة **الاقتصادية** كقيمة **نفسية بشرية** (الاهتمام بالأشياء التي لها مردود مادي...، حسب تصنيف سبرانجر للقيم)، وباعتبار راهنية معياري المرونة والمحتوى، بخصوص مقتضيات قيم الحوار الحضاري والثقافي، تعتبر هذه القيمة بمحتواها الأخير غير مندرجة في تصنيف هذه الأخيرة، حيث بعدها المادي المفرط يحرم البشرية من فرص التقدم كأسرة إنسانية كما تقدم؛ لكن ومع ذلك، يبقى السؤال المطروح هو كيف يمكن النهوض بهذه القيمة النفسية التي "تشترك فيها البشرية"، دون إثارة أي صدام ثقافي بشري، قائم على الاستعلاء الحضاري، باعتبار أن القيمة الاقتصادية لصيقة بنمط من الأنماط الستة للشخصية الإنسانية، وأن المطلوب توجيهها وإعادة النظر في صياغة محتواها، حتى تكون مناسبة فعلا للمشترك القيمي الإنساني؟ وبالتالي، كيف يمكن للقيم الإسلامية أن تلعب هذا الدور؟

وبخصوص القيمة السياسية كقيمة حوارية حضارية وثقافية؛ فهي تندرج فيما يسمى بـ "سياسة الحضارة"، "السياسة من أجل الناس أو السياسة البشرية، وإدارة الصالح العام عالميا، لكن بوجه إنساني مؤكد"[42] وبالتالي، لا مجال للحديث هنا عن خصائص "القيمة السياسية" بمحتواها الكلاسيكي المتداول في تصنيف القيم

[41]- الأمير حسن بن طلال 2002، **حوار الحضارات.. نظرات وخطرات (مقالات حول الحضارات ...)** قدمت هذه الورقة أمام مؤتمر المشاهير، بدبلن - إيرلندا، والذي عُقد في 30 - 31 آيار / مايو 2001م. والورقة مترجمة عن الأصل الإنجليزي.

[42]- ينظر:

Edgar Morin: **"La politique de civilisation ne doit pas être hypnotisée**…"in, www.Lemonde .fr/ politique/.../edgar-morin-La-politique-de-civilisation..

النفسية[43]؛ لذالك نرى ضرورة تعديل صياغة هذه القيمة النفسية، المرتبطة بالسياسة، لتنسجم وراهن بعدها السياسي الحواري الحضاري والثقافي، الهادف إلى السلام والتعايش معا، علما أن صياغة هذه القيم وتصنيفها (بعد تعديلها، في 1951)، تم في ظروف تاريخية لا تستدعي راهن قضايا الشأن الحواري الحضاري والثقافي، الذي لم يظهر بقوة إلا في تسعينيات القرن العشرين، وبداية الألفية الثالثة، مع نظريات "الصراع"، و"الحوار".

الحال إذن، أن لقيم الحوار الحضاري والثقافي مضامين خاصة، تفرضها طبيعة موضوعها؛ فهناك قيم ذات طبيعة اجتماعية، وسياسية، وأخلاقية، وعقدية، وفكرية، وفنية؛ مم يستدعي ضرورة تصنيفها وفق مجالاتها الخاصة. الشيء الذي يدفع إلى ضرورة إعادة التفكير في محتويات تصنيف القيم، لدى كل من سبرانجر، وفيرنون وألبورت، بإضافة بعض المحتويات، والذي يفرضها الشأن الإنساني راهنا. وهذا ما يعزز ضرورة استحضار دور القيم الإسلامية في إصلاح هذا الأخير.

5- النظر الكفائي المقاصدي ودوره في تعزيز قيم الحوار بين الحضارات والثقافات:

لماذا ينبغي الرجوع إلى النظر الكفائي المقاصدي؟ هل يستطيع هذا النظر أن يؤسس للمشترك القيمي مع الحفاظ على التعدد الثقافي؟... ماذا يعني كون المرء كفئا؟ أن يكون مؤهلا، قادرا على الإنجاز، عارفا كيف يتكيف؟ أن يمنح معنى خاصا لمهنته؟ أن ينخرط في قيم مشتركة؟

بالرجوع إلى المناسبة المقاصدية، نجد أنها تكشف الأساس المعرفي للاشتغال الكفائي، من خلال السمة التمايزية في تدبير التصرف البشري، وذلك من خلال انتهاض الشخص المناسب للفعل الكفائي المناسب، حيث الغاية من النظر الكفائي في الحقل الثقافي الإسلامي هو "نفي العبث في الأفعال"[45]؛ بمعنى الحديث عن قضية تجويد التصرف البشري من زاوية كفائية مقاصدية[46]، حيث اشتراط القائم بالأمور الكفائية أن يكون " فيه نجابة ونهوض"[47]؛ أي اشتراط التوفر على الموهبة والاستعداد، ... وبالتالي؛ فالفعل الكفائي باعتبار بعد المناسبة يروم تفعيل مجال الشأن الإنساني، من خلال تفعيل مجال إبداعه الخاص وتمايزه الفارقي الشخصي، ومن خلال مقصده الكلي، حيث "الكفائي قيام بمصالح عامة لجميع الخلق" كما قال الشاطبي.[48]

---

[43]- ينظر، علي مهدي كاظم، **القيم النفسية والعوامل الخمسة الكبرى في الشخصية**، مجلة العلوم التربوية والنفسية، العدد 2 يونيو 2002، ص ص 11-42

[45]- شهاب الدين القرافي، **أنوار البروق في أنواء الفروق**، دار المعرفة، بيروت ج1، ص 116

[46]- عمر بيشو، **"الكفاية المقاصدية كآلية لتطوير الشرط الإنساني"** مجلة فكر ونقد، العدد 68 أبريل 2005

[47]- أبو إسحاق الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ج1، ص ص 126- 130

[48]- **الموافقات**، 177/1

وعليه، يمكن القول إن القراءة المقاصدية للمفهوم الكفائي التراثي العربي الإسلامي تمنحه بعدا دلاليا معرفيا Cognitif يقترب إلى حد ما من ذلك الذي يتأثث راهنا بخصوص الاشتغال المعرفي الكفائي، ذي السمة التمايزية في تدبير التصرف البشري؛ ذلك أن الحكم على فعل بشري ما أنه "كفائي"- وأن صاحبه يتمتع بكفاية أو كفاءة ما- لا يمكن الجزم به إلا إذا استطاع أن "يواجه الوضعيات الجديدة بجعلها تتجابه وموارد معرفية من خلال تحريكها بشكل مناسب وملائم". هذا الاشتغال الكفائي الأخير ذي الصبغة العلمية الراهنة (علم الشغالة المعرفي ،علم النفس المعرفي)، لا يمكن أن يتأتى لأي فرد/ مكلف يراد منه تحقيق ذلك الاشتغال الكفائي الفقهي الكلاسيكي ما دامت العبرة بالفعل- المزيل "للأود العارض في الدين" كما هو معمول به فقهيا تقليديا- وليس في مدى درجته الذكائية الوضعياتية في معالجة الأمور. وعليه، للإجابة على السؤال المطروح، يقتضي الأمر دراسة علاقة القيم الإسلامية بالتنمية في النظر الكفائي؛ وذلك من خلال البحث في السقف المعرفي لأطروحة الواجبات الكفائية كسبيل للحوار بين الثقافات والحضارات، وبالتالي بالتنمية؛ حيث ضرورة إحياء الواجبات الكفائية المقاصدية كسبيل للانخراط في راهن النظر الكفائي، ومن حيث ضرورة إعادة قراءة المتن الفقهي الكفائي المقاصدي، لاستلهام أسس المشترك القيمي الحضاري: الكفاية المقاصدية في علاقتها بالشرط الإنساني مثلا؛ والبعد الأخلاقي في تدبير العلاقة بالمعرفة؛ أي في ربط المعرفة بالقيمة في التصور المقاصدي الرشدي مثلا. وعليه، إن فكرة البحث في مجال التربية والقيم وعلاقتهما بالنظر الكفائي تقتضي:

أولا- رصد وتتبع الشأن القيمي في التدبير الكفائي، من خلال، راهنه التربوي من جهة؛ من حيث إضفاء البعد الإنساني والاجتماعي للفعل الكفائي[49]؛ ومن جهة ثانية، من خلال تراثه التربوي وذلك في بعده الفكري المقاصدي، كمساهمة في التنظير للمشترك القيمي والتعدد الثقافي والحوار الحضاري.

ثانيا- رصد وتتبع آليات اشتغال التدبير الكفائي، وأساسا من خلال:

التحديدات المفهمية للكفاية، والمتمثل في مكون المواجهة المناسبة، حيث المناسبة كمكمن للمقاصد والمصالح، وكوجه عملي قيمي في التدبير الكفائي، يقتضي توسيع دلالاته من خلال البحث في قضايا تجويد التصرف البشري، سواء في بعده المعرفي المقاصدي (الكفاية المقاصدية عند الشاطبي، أو البعد الأخلاقي القيمي في تدبير العلاقة بالمعرفة عند ابن رشد...)، أو في بعده المعرفي الكوني المعاصر (تمفصل الأخلاق بالمهارة، وكذا البعد السوسيو ثقافي في الفعل الكفائي...). وبالتالي، فالمناسبة كمسلك من مسالك المعنى وكمسلك من مسالك التقصيد (تفعيل المقاصد)؛ وباعتبارها مصلحة، بالمعنى المقاصدي للكلمة، يمكن أن تكون مسلكا من مسالك القيم المشتركة؛ أي مدخلا يربط بين النظر الكفائي والقيم.

[49]- عمر بيشو: **"الكفايات والقيم:أية علاقة؟"**، مجلة علوم التربية، عدد 48، يوليوز 2011، ص ص 52-61

فالمناسبة / Pertinence، هي الفعل الذي يجعل تعبئة الموارد المعرفية- في مواجهتها بوضعيات مشابهة - ذات معنى ودلالة من جهة؛ كما يقتضي أن يكون لها بعدها الأخلاقي، وهذا ما يميز أصلا أسس المقاربة بالكفايات(خاصة المستعرضة منها) عن ذلك الذي للأهداف في صورتها الإجرائية المغالية في التجزيء؛ أي أن المشتغلين- في إطار هذه الأخيرة- يجدون صعوبة في نسج صلات ووشائج بين المحتويات، بين الاستراتيجيات المستعملة في الفصل أو ... أو بالأحرى، بين وضعيات محضرة في المدرسة أو المقاولة أو ... وأنشطتهم اليومية؛ أي أن نمط "المعارف" التي يتم استدعاؤها واستنفارها تكون في الغالب ذات صبغة تركيبية تشاركية، كونية، من قبيل: إتقان الشيء / Savoir-faire (العمل الصالح)، معرفة التواجد / Savoir être معرفة التعايش / Savoir vivre، إلخ.

إن معالجة القيم من خلال النظر الكفائي، تعني إذن:

أ- إمكانية استدماج القيم كموارد للتعبئة، وهو المراد من وضع القيم كمرتكزات ثابتة كما أعلن عنها الميثاق الوطني للتربية والتكوين.

ب- تفعيل أسس الاشتغال الكفائي المتمثل في أساس المناسبة، كمكون كفائي في المقاربة الكفائية: **"التمكن كفائيا من إدماج الموارد المعرفية في جعلها تتواجه ووضعيات مشابهة بشكل مناسب"**، وهنا تبدو العلاقة بين الكفاية والقيم واضحة وجلية.

إن إصلاح المعرفة كما يتداول في الفكر السوسيولوجي المعاصر(إدغار موران) يقتضي ضرورة إيجاد بنية اشتغال تقوم على وصل آليات التدبير الكفائي بضوابطه، وليس فقط الارتكاز على إبراز الوجه العملي ذي الصبغة "الآلية" (التعبئة، التحويل، الإدماج)- كما روجت له منظومتنا التربوية عبر ما يسمى ببيداغوجيا الإدماج- دون الإلمام بالوجه العملي الثاني المتعلق بضوابط هذا الاشتغال؛ أقصد استحضار البعد القيمي في التدبير الكفائي، التحدي الأكبر، والضامن الحقيقي لجودة الفعل الكفائي وفعالية التصرف البشري، تجاوزا للحمولة الدلالية المادية المنزوعة من القيم الاجتماعية /الأخلاقية للفظ "الكفاية"، حيث استعمالها يتم وفق منطق التحيز والفصل بين حكم الفعل وحكم القيمة، كأحد أبرز تجليات دواعي راهن إصلاح المعرفة في فكر ما بعد الحداثة.

التفكير في المناسبة / Pertinence إذن، أضحى أمرا بحثيا ملحا وضروريا كآلية ضابطة لنجاعة الفعل

الكفائي من خلال توسيع دلالات هذا المكون الكفائي في الحقل التداولي الغربي (جون ماري دي كوتيل، فيليب جونيير، الخ)، ليشمل ذلك الذي للحقل الثقافي الإسلامي، وأساسا النظر الكفائي في الحقل المقاصدي، حيث تتمظهر الكفاية المقاصدية (الشاطبي) كآلية لتطوير القيم الإنسانية الكونية المشتركة، وكنموذج حي لتناظم

القيم الذي أسس له الميثاق الوطني للتربية والتكوين (قيم العقيدة الإسلامية، قيم الهوية الحضارية ومبادئها الأخلاقية، قيم المواطنة، قيم حقوق الإنسان ومبادئها الكونية).

بعبارة أخرى، عوض تشجيع هذا التيار الساعي إلى جعل الكفاية أكثر وصلا بالقيم، تم تشجيع تيار "مادي" يسعى إلى **تكميم** الكفاية، وتجريدها من أفقها القيمي. لذلك نرى أن أزمة التدبير الكفائي، راجعة إلى اختزاله أولا، في اشتغاله الآلياتي دون استحضار البعد الضابطي، كما أبرزه التحليل السوسيوبنائي لمفهوم الكفاية، والذي يجعل الفعل الكفائي يتحرك وفق كل وجيهاته وأبعاده، بما في ذلك بعده الأكسيولوجي/ القيمي. كما نرى ثانيا، أن الحاجة إلى تفعيل هذا البعد الأخير، من خلال مكون المناسبة، يسمح باستنفار أفق النظر الكفائي المقاصدي، باعتباره مكمنا للمشترك القيمي، والحوار الحضاري والثقافي.

وبالتالي، يمكن القول إن النظر الكفائي المقاصدي يمثل **مخرجا** لأزمة راهن التدبير الكفائي على مستوى بعده القيمي، و**مدخلا** لمنح القيم الإسلامية دورا مهما في تقوية الحوار الحضاري والثقافي:

- **كمخرج لأزمة التدبير الكفائي**، باعتبار تعامله مع الفعل الكفائي بوصفه وحدة بنائية لا تعزل حكم الفعل عن حكم القيمة (رعاية الفعل الكفائي لخدمة المجتمع ومصالح الناس/ البعد الأخلاقي في العلاقة بالمعرفة).

- **كمدخل لمنح القيم الإسلامية** دورا فعالا في تعزيز هذا الحوار، حيث إن الحاجة إلى تفعيل التيار السوسيوبنائي، باعتباره تيارا يرمي إلى ضبط الكفاية أو الفعل الكفائي اجتماعيا، وبالتالي قيميا، لا يسعف فقط في إمكانية وصل المعرفة بالقيمة، كما هي مطلوبة إبيستيمولوجيا في راهن العلاقة بالمعرفة، بقدر ما يتيح- في نظرنا- إمكانية الاستمداد من أفق القيم الإسلامية اعتمادا على مدخل المناسبة المقاصدية، والنظر الكفائي المقاصدي، والذي يحمل مسؤولية جودة التصرف البشري للخلق أجمعين؛ وبالتالي، المساهمة في التأسيس للكفايات البينثقافية، والبينحضارية، والبيندينية من منظور إسلامي.

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com